بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨ـ٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧ـ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

القيم الإسلامية ودورها في تقديم حلول للمشكلات البيئية العالمية

الأستاذ الدكتور عبد العزيز التويجري

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

عمّان- المملكة الأردنيّة الهاشميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

القيم الإسلامية ودورها في تقديم حلول للمشكلات البيئية العالمية

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله وآله وصحبه

صاحب السّمو الملكي،

أصحاب المعالي،

أصحاب الفضيلة،

أصحاب السّعادة،

حضرات السّادة والسّيدات،

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

يسعدني أن أشارك في المؤتمر العام الخامس عشر لمؤسسة آل البيت الملكيّة للفكر الإسلامي، بهذا العرض الـذي سأقدمه بين أيديكم، حول موضوع : **(القيم الإسلاميّة ودورها في تقديم حلول للمشكلات البيئيّة العالميّة)**. وأودّ بادئ الأمر، أن أتقدّم بالشّكر والتّقدير إلى حضرة صاحب الجلالة الهاشميّة الملك عبد الله الثّاني ابن الحسين، ملك المملكة الأردنيّة الهاشميّة، حفظه الله، على الدّعم الكبير الذي يقدّمه لهذه المؤسّسة العلميّة المتميّزة، التي أشرف بعضويتي فيها منذ سنوات، داعياً الله تعالى أن يُديم نعمته على هذا البلد العربيّ الإسلاميّ الأمين، وأن يوفق عاهله الكريم إلى ما فيه الخيرُ لشعبه ولبلده ولأمّته المجيدة وللإنسانيّة جمعاء، وأن يوفّق جميعَ قادة دول العالم العربي الإسلامي، ويعجّل ـ سبحانه ـ بتفريج الكربة وإزالة الغمّة ونصرة الأمّة، وتحرير فلسطين في

القريـب العاجل، وفـكّ الحصار عن شعبــها الشّقيق الصّامد البطل وتمكينه من استرجاع حقوقه الوطنيّة التّاريخيّة الشّرعيّـة كاملــة غير منقوصة.

صاحب السّمو الملكي،

أصحاب المعالي والفضيلة والسّعادة،

حضرات السّادة والسّيدات،

لقد اخترت أن أتحدّث إليكم حول المحور الرّابع من محاور هذا المؤتمر المهمّ الذي يعقد تحت عنوان **(البيئة في الإسلام)**. وهو موضوع بحكم طبيعته، ينقسم إلى قسمين رئيسَيْن؛ **أولهما** البيئة في القرآن الكريم، **وثانيهما** البيئة في الحديث النّبويّ الشّريف. وتتفرّع عن هذين القسمين موضوعات كثيرة وقضايا متعدّدة، ليس الموضوع الذي اخترته سوى واحداً منها. ذلك أنّ القيم الإسلاميّة مستمدّة أساساً من الكتاب والسّنّة، فهما مصدرا التّشريع، وهما ينبوعُ الخير كلّه والهداية للبشر في دنياهم وأخراهم.

صاحب السّمو الملكي،

أصحاب المعالي والفضيلة والسّعادة،

حضرات السّادة والسيدات،

إذا راجعنا ما يمكن أن يرادف كلمة **(القيم)** في اللّغات الغربيّة، لوجدنا كلمة (ETHIQUES) التي تدلّ على مجموعة قواعد السّلوك، كما نجد كلمة (VALEURS) باللغة الفرنسيّة، ومن معانيها ما يعدّ حقاً وجميلاً وخيرًا طبقاً لمعايير شخصيّة أو اجتماعيّة، ويوظّف معياراً ومرجعاً لمبدأ خلقي. أمّا ما تشير إليه الكلمة وتوحي به ظلالها في اللغة العربيّة، فالقيم جمع قيمة، وهي ما يكون به الشّيء ذا ثمن أو فائدة، يقول المثل العربي : **(قيمة كل امرئ ما يحسنه)**.

وتشير القيمة إلى الخصلة الحميدة والخلّة الشريفة التي تحضّ الإنسان على الاتّصاف بها، كحرصه على اقتناء الأشياء ذات القيمة الثّمينة والاحتفاظ بها، والقيمة ثمن الشّيء الذي يقوم مقامه.

وترد القيم مفردًا مصدرًا، ومنه: [دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا] [الأنعام :161]، في قراءة جماعة من القراء، وكذلك ورد في قوله تعالى: [وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا] [النساء:5]، في قراءة نافع، أي بها تقوم أموركم.

والشّيء القيّم الذي له قيمة عظيمة مبالغة، وأصله قويمٌ على رأي الفرّاء، وفعيل شاذ على رأي سيبويه، وقرأت طائفة [دِينًا قِيَمًا] ، أي مستقيمًا أو كافيًا لمصالح العباد يقوم عليها.

والقيم عند بعض الفلاسفة حكمٌ يصدره الإنسان على الأشياء، وينبع منه الاعتراض والاحتجاج على الوجود، كما هو قائم ومفروض لتحويل هذا الوجود وفق ما ينبغي أن يكون.

وتبعًا لهذا الأصل اللّغويّ، فإنّ القيم هي تلك المبادئ الخلقيّة التي تمتدح وتستحسن وتذمّ مخالفتها وتستهجن، ولعلنا لا نتوقّف طويلاً عند وصف هذه المبادئ بأنها خلقيّة، لأنّ الأخلاق تحتاج إلى تعريف. وباختصار فهي تلك السّجايا الكامنة في النّفس، وهي أيضًا المظهر الخارجي لتلك السّجايا[1].

والقيم من حيث هي، إنّما مصدرها العقائد والمبادئ التي يؤمن بها الإنسان. ولذلك فإنَّ القيم تتعدّد بتعدّد مصادرها؛ فهي تكون نسبيّة وقد تكون مطلقة وثابتة. وهي ثابتة بحسب ثبات العقيدة المنبثقة منها، سواء أكانت دينيّة أم قانونيّة تشريعيّة أم فكريّة ثقافيّة.

والقيم بالنسبة للإنسان المسلم، هي قيم الإسلام ومبادئه ومقاصد شريعته ومكارمها، على ضوئها تتحدّد هذه القيم، وعلى قواعدها تقوم، ومن أنوارها

---

(1) في بحث للشّيخ عبد الله بن بيّه عن (القيم المشتركة) من موقعه : www.binbayyah.net.

تقتبس، ومنها تستمدّ قيمتَها. فهي بذلك قيم ثابتة مطلقة راسخة لا تتبدّل حسب تبدّل الأحوال، ولا تتغيّر وفق تغيّر المبادئ التي تساير تطور الحياة. فالثّبات والرّسوخ والاستمرار سمات مميّزة لقيم الإسلام.

وقد يرد في هذا السّياق السّؤال التّالي :

- ما الفرق بين **(القيم الإسلاميّة)**، وبين **(العقائد الإسلاميّة)**، و**(المبادئ الإسلاميّة)** و**(أحكام الشّريعة الإسلاميّة)**؟.

ونحن نجيب عن هذا التّساؤل بقولنا إنّ القيم الإسلاميّة، بالمفهوم الذي نعتمده هنا ونقصد إليه، هي جوهر العقائد والمبادئ والأحكام الشّرعيّة، لأنّها الخلاصة التي تختزل الكليّات والأصول والأركان والمبادئ والمفاهيم جميعاً. فالقيم الإسلاميّة هي المعيار الذي نقيس به الأمور جميعاً، ما يتعلّق منها بحياة الفرد أو حياة الجماعة، وما يتّصل منها بالحياة فوق هذه الأرض، على وجه العموم.

إنّ الصّدق في القول قيمة، والأمانة قيمة، والنّزاهة قيمة، والجدّ والإخلاص في العمل قيمة، والحفاظ على حياة الإنسان قيمة، ورعاية البيئة قيمة، وتعمير الأرض قيمة، والامتناع عن الفساد في الأرض قيمة، والرّفق بالحيوان قيمة، وعدم الإسراف في استعمال المياه قيمة، ومحاربة التلوّث قيمة، والطّهارة والنّظافة قيمة. فهذه جميعها قيم إسلاميّة تستند إلى آيات قرآنيّة وأحاديث نبويّة. وعلى هذا الأساس تكون القيم الإسلامية هي جماع العقائد والمبادئ والأحكام الإسلاميّة، لأنّها مستمدّة منها، وإليها مرجعيّتها.

وتنسجم القيم الإسلاميّة تماماً مع الفطرة الإنسانيّة، ومع السّنن الكونيّة، ولا تتصادم مع القيم الخيّرة المستوحاة من الأديان الأخرى، والمذاهب الفلسفيّة، ومع جوهر الثّقافات والحضارات الإنسانيّة، ما دام القاسم المشترك بينها جميعاً، هو القيم الرّوحيّة، والقيم العقليّة، والقيم الإنسانيّة ومكارم الأخلاق والفضائل التي لا خلاف حولها.

والقيم الرّوحيّة والأخلاقيّة هي قيم مشتركة بين الأديان والثقافات والحضارات. ومصدر القيم المشتركة هو رسالة النّبيّ الخاتم سيدنا محمد ρ التي هي للنّاس كافّة. قال تعالى : [قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] [الأعراف:158].

لقد قرّر الإسلام أنّ النّزعة إلى الخير والإيمان والحقّ فطرة لكل النّاس. قال تعالى : [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ] [الروم : 30].

إنّ القيم الإسلاميّة ترسم معالم طريق الخير والهداية أمام البشر أجمعين، وهي تقدّم الحلول للمشكلات التي يعاني منها الفرد والمجتمع في إطار الكليّات العامّة لمبادئ الشّريعة الإسلاميّة. ومسؤوليّة الفرد المؤمن في وقاية نفسه وبيئته ومجتمعه من كل ما من شأنه الإضرار بالحياة الخاصّة أو العامّة، تنبع من الإيمان بالله والخشية من عقابه سبحانه، والامتناع عن اقتراف الموبقات والآثام التي تفسد هذه الحياة من الجوانب كافّة، وليس فحسب من الجانب الذّاتي، ممّا يجعل هذه المسؤوليّة الفرديّة تشمل الجوانبَ الخارجيّة أيضاً.

ومن هنا تأتي القيم الإسلاميّة التي تعصم عن الفساد في الأرض، والتي تحول دون إفساد البيئة، وتجعل من حماية الأرض والمحافظة على البيئة واجباً شرعياً.

وثمة أمرٌ ذو أهمّيّة ينبغي الإشارة إليه، وهو أن القيم الإسلاميّة في المحافظة على البيئة لا يؤديها ويؤكدها **(الفقه)** وحده، بل تؤدّيها وتؤكّدها كذلك **(أصول الفقه)**، وخصوصاً مقاصد الشّريعة التي تقوم على أساس أنّ الشّريعة إنما جاءت لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد، أو في العاجل والآجل، وأنّ مقصود الشريعة من الخلق، هو حفظ دينهم وأنفسهم ونسلهم وعقولهم وأموالهم، وهي **(الضروريات الخمس)** التي تعني المصالح الأساس التي لا تقوم الحياة الإنسانيّة إلّا بها، ودونها في الرّتبة **(الحاجيّات)**، وهي المصالح التي

يمكن أن يعيش الإنسان بدونها، ولكن تكون حياته في مشقّة وحرج وضيق وعسر، ودونها في الرّتبة **(التّحسينيات)**، وهي ما نعبّر عنه بلسان عصرنا بـ **(الكماليّات)** التي بها تجمل الحياة وتحلو[1].

وفي هذا السّياق يقول الإمام ابن قيم الجوزيّة رحمه الله : "فإنّ الشّريعة مبناها وأساسها على الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكلّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرّحمة إلى ضدّها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشّريعة وإن أدخلت فيها بالتّأويل فالشّريعة عدل الله بين عباده".

فالقيم الإسلاميّة في المحافظة على البيئة إذن، تنبع من إيمان المسلم بأنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق الأرض. فما دام خالق الأرض هو الله سبحانه، فالواجب الشّرعي هو الحفاظ على سلامة هذا الكوكب الأرضي وحمايته من التّلوّث بشتّى أشكاله. يقول الله في كتابه الكريم : [مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا] [الكهف: 51]. والله خلق الإنسان من تراب، من طين، من حمإ مسنون، من صلصال كالفخّار، ثمّ نفخ فيه من روحه. فأصل الإنسان ومقوّمات حياته من الأرض، من الطّين، إنّ هذه القشرة الأرضيّة الخصبة هي التي تعطي كل مقومات الحياة التي نعيشها، ولقد حلّل العلماء جسد الإنسان، فوجدوه مكوّناً من عناصر، أوّلها الأوكسجين وآخرها المنغنيز. والقشرة الأرضيّة الخصبة مكوّنة من العناصر نفسها، إذ إنّ عناصر الطّين المخصّب هي العناصر نفسها في جسم الإنسان.

وقد أمر الله I الإنسان بعدم الإفساد في الأرض، حيث قال في كتابه الكريم : [وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ] [الأعراف: 56].

---

(1) رعاية البيئة في شريعة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص44، دار الشّروق، الطّبعة الأولى، 2001م، القاهرة.

[فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ] [محمد: 22].

[وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ] [المائدة: 64].

ومظاهر إفساد الإنسان في الغلاف الأرضي، تتجلّى في إهدار التّربة والتّصحّر وعدم تسوية الأرض بعد التّنقيب عن المعادن .. إلخ. لقد نمت لدى الإنسان المهارة أكثر ممّا نمت لديه الحكمة والعقلانيّة[1].

ولـمّا كان الماء هو أصل الحياة، فإنّ تلوّث الماء هو فساد للبيئة ولحياة الإنسان فوق هذه الأرض. والتّوجيهات الإسلاميّة في هذا المجال بالغة الحكمة، ترسم منهجاً قويماً للتعامل مع البيئة من خلال حسن الاستخدام للماء.

ويشتمل الغلاف الأرضي على الماء في حالاته الثّلاث : الغازيّة والسّائلة والصّلبة، سواء أكان موجوداً في الهواء، أو على سطح الأرض، أو في داخل الأرض.

ولذلك فإنّ التّعاليم الإسلاميّة في مجال المحافظة على طهارة الماء، لا نجد لها مثيلاً في الشّرائع السّماوية والقوانين الوضعيّة، ممّا يجعلها قيمة عظمى من القيم الإسلاميّة.

لقد ذكر الماء في القرآن في ثلاثة وستين موضعاً، والماء أوّل الموجودات، يقول الله تعالى في محكم كتابه : [وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا] [هود: 7].

ويقول الرّسول ρ: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثمّ خلق السّموات والأرض، وكتب في الذّكر كل شيء». أخرجه التّرمذي.

والماء تعتمد عليه كل الكائنات، يقول الله تعالى : [وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ] [الأنبياء: 30].

---

(1) العالم الإسلامي والتّنمية (الخصوصيّات والتّحديات والالتزامات)، من منشورات المنظمة الإسلاميّة للتّربية والعلوم والثّقافة، 2002، الرّباط.

وأثبتت الأبحاث أنّ جسم الإنسان يحتوي على 70% من مكوّناته من الماء، فإذا تناقصت هذه النّسبة، تعرّضت أجزاؤه للمرض، فإذا وصلت نسبة الفقد إلى 20% تعرّض للموت. وأصل الإنسان من ماء. وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم : [وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا] [الفرقان: 54].

والماء سبب إنبات كل شيء، قال الله تعالى : [وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ] [لقمان: 10].

والماء مصدر تنوّع الحياة النّباتيّة على الأرض، قال الله تعالى : [أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا] [فاطر: 27].

والماء مصدر الرّزق. قال الله تعالى : [وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ] [البقرة: 22].

والماء مصدر للشّرب، وعظة واعتبار للبشر، قال سبحانه وتعالى : [أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ] [الواقعة: 68-70].

والماء مورد للاستغاثة لتذكّر الله، قال تعالى : [وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ] [الإسراء: 67]. وقال عزّ من قائل : [وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ] [الأعراف: 50]. وقال تعالى : [وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ] [الرّعد: 14].

والماء وعد ووعيد، قال الله تعالى : [قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ] [الملك: 30].

والماء مصدر رهبة ورجاء، قال الله تعالى : [هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ] [الرعد: 12]. وقال تعالى : [وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ] [الرّوم: 24].

والنّاس في حاجة إلى تخزين الماء على مدار العام في آبار وعيون، قال الله تعالى : [وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ] [المؤمنون: 18]. ويقول عز من قائل : [وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ] [يس: 34]. وقال تعالى : [وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ] [الأنعام: 6].

والماء سبب للهلاك، قال الله تعالى : [فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ] [القمر:11-12]. وقال تعالى : [وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ] [الدّخان: 24].

والماء سبب للتّكاثر والخلود، قال الله تعالى :

[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] [الطّارق: 5-7].

والماء وسيلة انتقال، قال الله تعالى : [ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] [الجاثية: 12].

والماء مصدر للغذاء ومصدر لا ينفد للأطعمة المائيّة والبروتينات الحيوانيّة، وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : [أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ] [المائدة: 96]، [وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا] [فاطر: 12].

والماء بشارة خير ورحمة وطهارة وبركة وحياة للنّاس، قال سبحانه وتعالى : [وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا] [الفرقان : 48]، [وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ] [الأنفال : 11]، [وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ] [ق: 9].

فالماء، في الجملة، هو مصدر الحياة. وهو من أهمّ الموارد التي تجب العناية بها، والمحافظة عليها. الماء أصل الحياة للإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى : [وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ] [الأنبياء: 30].

ولذلك جعل الإسلام من المحافظة على طهارة الماء وحمايته من التلوّث، ليس فحسب ضرورة حياتيّة، ولكنه واجب شرعي يحاسب الإنسان على تركه له.

وتلك هي القيمة الإسلاميّة التي تجمع بين الأرض وبين الماء، ضمن رؤية متجانسة هي أساس الثّقافة الإسلاميّة، وتجعل من المحافظة على سلامة الأرض وطهارة الماء واجباً شرعياً وضرورة حياتيّة.

فالنّظرة الإسلاميّة البيئيّة، إلى أهميّة التّثقيف البيئي لحماية كوكب الأرض، نظرة إنسانيّة كونيّة تتفق عليها جميع الفلسفات بسبب ما اتّضح للعالم من أضرار وسوء استعمال للبيئة الطبيعيّة، فملامح التّوحيد بين الإنسان والطّبيعة قبلت في الأديان عامّة، وتظهر في الإسلام خاصّة، لأنّ الإسلام يعطي الإنسان، وهو أحد مخلوقات الله، **دور القائد المسؤول عن بقيّة المخلوقات، لقدرته على السّيطرة عليها بعقله، فسخّرها له جميعاً، أي جعله قادراً عليها ومسؤولاً عن رعايتها**. وهذه النّظرة تؤكّد أنّ الإنسان حارس على ممتلكات الأرض التي وصّى الله على طاقاتها وثرواتها، فجعل الإنسان راعياً ومسؤولاً عن موجودات الكوكب الأرضي بكامله[1].

صاحب السّمو الملكي،

أصحاب المعالي والفضيلة والسّعادة،

حضرات السّادة والسّيدات،

في مستهل شهر يونيو الماضي، ألقى الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني، محاضرة في مركز أكسفورد للدّراسات الإسلاميّة، حول موضوع **(الإسلام والبيئة)**. كانت هذه المحاضرة حدثاً ثقافياً لافتاً للنّظر. ومن قول الأمير تشارلز في هذه المحاضرة : (إنّ تعاليم الإسلام أفضل وسيلة لحماية البيئة). وأضاف قائلاً : (إنّ الحقيقة المزعجة هي أننا نعيش على هذا الكوكب مع باقي المخلوقات لسبب وجيه للغاية، وهو أننا لا يمكن أن نعيش بمفردنا من دون الشّبكة

(1) التّربية البيئيّة، الدكتور سعيد محمد الحفار، هيئة الموسوعة العربيّة، دمشق، 2002م.

المتوازنة بصورة معقّدة من الحياة حولنا. والإسلام أرشد إلى ذلك دوماً. ويعد تجاهل هذا الدّرس بمثابة إخفاقنا في تنفيذ عقدنا مع الخلق).

كما دعا الأمير تشارلز في محاضرته تلك، إلى اتّباع المبادئ الإسلاميّة من أجل حماية البيئة، وركّز على أهميّة اتّخاذ خطوات لوقف الضّرر الذي يحدث من البشريّة تجاه البيئة قبل فوات الأوان.

وقال الأمير تشارلز بهذا الخصوص: (إنّ العالم يواجه العديد من المشاكل ذات الصّلة بالبيئة والتّغيّر المناخي)، وأشار في هذا السّياق إلى أنّ البشر دمّروا على الأقل 30 في المائة من غابات العالم الاستوائيّة، وأوضح أنّ استمرارية التّدمير بهذا المعدل سيؤدّي إلى وضع مضطرب بحلول عام 2050م. وبيَّن أنّ الأمر غير الواضح في هذه المشاكل، هو أنّ النّظرة العامّة والتّوجهات تجاه هذه المشاكل تعمل على عكس التّعاليم الدّينيّة لكل فرد في العالم وفي مقدّمتها تعاليم الإسلام.

كما بيّن الأمير تشارلز في محاضرته التي جاءت بمناسبة مرور 25 عامًا على تأسيس مركز أكسفورد للدّراسات الإسلاميّة، أنّ التّركيز القوي على حماية البيئة يعد إحدى القضايا المشتركة بين الدّيانات الكبرى في العالم، وكيف أنه لا يوجد فصل في القرآن الكريم بين الإنسان والطّبيعة، مبيّنًا أنّ العالم الإسلامي يحتضن أعظم الكنوز المتراكمة من الحكمة والمعرفة المتاحة للإنسانيّة.

إنّ هذا الرّبط بين الإنسان والطّبيعة في الرّؤية الإسلاميّة، هو الأساس المتين الذي تنبني عليه حماية البيئة في المفهوم الإسلامي، وهو جوهر القيم الإسلاميّة التي إذا عرف العالم كيف يهتدي بها، حمى هذا الكوكبَ من التلوّث الذي يهدّد البيئة بأوخم العواقب.

ونحن نقدّر للأمير تشارلز إدراكه الواعي لهذه الحقائق الإسلاميّة عن البيئة، وهو الأمر الذي يغيب عن الأذهان حتى لدى من يفترض فيهم الدّعوة إلى الإسلام والتّعريف بالقيم الإسلاميّة على نطاق محلي أو عالمي.

لقد جاء الإسلام لإفهام الإنسان بأنّ السّلامة في الأرض ليست مشروطة فقط باتّخاذ الاحتياطات الماديّة وحسب، بل هي مشروطة أيضاً بالجانب الأدبي، **وأنّ العلاقة بين النّظافتين الماديّة والمعنويّة**، هي علاقة حتمية لا انفصام بينهما. فكان من حكمة الله Y إيراد قصص الشّعوب القديمة بالقدر الذي يحقّق الغاية التي يطمح الإنسان إلى بلوغها وهي **(السّلامة)** بالمفهوم الشّامل والجامع.

أوليس الذين يقبلون على تدمير البيئة التي أخرجها الله Y للنّاس سليمة معافاة، كانوا جديرينَ بالامتناع عن هذا التّدمير، لو أنهم تصرّفوا في ضوء اعتقادهم بأنّ كلّ ما سخّر لهم هو وديعة مستردة؟. وأنّ الله Y هو المالك الحقيقي لهذه الوديعة؟ وأنّ حسن التّصرّف فيها هو شرط استمرارها موطنَ أمن وسلامة؟ لكن الواقع أنّ كثيرين من النّاس قد عموا عن هذه الحقيقة، وتصرّفوا في البيئة تصرّف المالك العابث بها لا يشغلهم من شؤون الدّنيا غير ما يحصلون عليه من المنافع المباشرة حتى ولو كانت على حساب غيرهم من المعاصرين لهم أو من الذين يأتون بعدهم من الأبناء والأحفاد.

لقد أثبتت التّجارب التّاريخيّة أنّ البقاء هو حصيلة عاملين أساسَيْن :

1- الإيمان الذي يغذّي الإحساسَ بأهميّة الأمانة التي يؤتمن الإنسان عليها وهي النّعم المبثوثة في السّماوات والأرض وما بينهما.
2- الكشوف العلميّة التي يتعرّف بها أصحابها إلى قوانين السّلامة وشروط البقاء والظّروف الماديّة للأمن.

كما أثبتت التّجارب التّاريخيّة أيضاً، أنّ افتقاد أحد هذين العاملين مصدرٌ لخطر الإبادة، ومادة لاغتيال سعادة البشر.

فالعلم وحده عندما يفتقد الحافزَ الرّوحيَّ لا ينفع، وهو لا يبني، ولكنه يهدم ويفسد في الأرض.

والإيمان يفتقد معناه وجوهره، حين لا يكون حافزاً إلى السّعي في الأرض والسّير فيها ابتغاء الكشف عن قوانين السّلامة ومصادر الثّراء.

وهذا هو معنى قوله تبارك وتعالى في محكم تنزيله : [قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ] [العنكبوت: 20][1].

أو ليس ما تتعرّض له الكرة الأرضيّة اليومَ من التّلويث الشّامل في تربتها وأنهارها وبحارها وأشجارها وحيوانها وأجواء فضائها، لم تحل دون وقوعه كل الإنجازات العلميّة الماديّة التي حققها الإنسان؟

أو ليس فقدان الإيمان بالعناية الإلهيّة وتجاهل حقّ الله على الإنسان، هما اللذان يدفعان كثيرين من صانعي القرارات إلى إفساد الأرض وتلويث الكثير من مصادر الرّزق؟

إنّ المعرفة العلميّة وحدها غير كافية لتحقيق خطّة الالتزام بسلامة البيئة. فالحاجة ماسّة إلى حرارة الإيمان وهيمنة القيم الرّوحيّة التي تدفع أصحابها إلى التّعامل مع البشر على أساس أنهم أصحاب حقوق متساوية في الكرامة وطلب الرّزق، وإلى التّعامل مع الأرض على أساس أنّها وحدة لا تقبل التّجزؤ والانفصام.

كلّ هذا الذي أثبتناه، يعود بنا إلى كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي جعل ضرورة العودة إلى الماضي والاتّعاظ بمصائر أصحابه، مدخلاً أساساً **<u>للحفاظ على شروط الحياة الصحيّة السّليمة في الحاضر</u>**.

والجدير بالذكر أنّ كلام الله عن الماضي يمكن أن نقسمه إلى قسمين أساسَيْن :

1- قسم يسلّط الضّوء على مصائر الأقوام الذين يفسدون وأفسدوا وتجاهلوا حقّ الله في أنفسهم وفيما حولهم.

---

(1) د. سعيد محمد الحفّار،المرجع السّابق، ص 224.

2- قسم آخر يحضّ المؤمنين وغير المؤمنين، على التّحرّر من هيمنة ما يسوء من صفات الماضين وسلوكهم، ويدفعهم في الوقت نفسه إلى تقليد الصّفات الطيبة عند هؤلاء الماضين.

أمّا فيما يتعلّق بموضوع القسم الأوّل، فإننا نجد مصداقه في آيات كريمة اخترناها على سبيل المثال لا الحصر. قال تبارك وتعالى : [أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] [يوسف: 109]. وقال عزّ من قائل : [أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ] [الروم: 9]. وقال الحقّ سبحانه : [أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا] [محمد: 10]. وجاء في القرآن الكريم حول هذه المسالة أيضاً : [قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ] [آل عمران: 137].

هذه الآيات القرآنيّة غيض من فيض تحدث الناس حديث الأقوام الماضية، وتربط بين كفرهم وسلوكهم المنحرف وبين ما نزل بهم من الهلاك. وتبدو لنا العلاقة بين اليقين الصّادق وبين إحساس الإنسان بأنّه مستخلف على الأرض إلى أجل مسمى، حين نتلو (الآية : 12 من سورة الأنعام) التي جاء فيها قوله عزّ من قائـــل : [قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ].

وخلاصة القول : إنّ دور **البيئة الزمانيّة** يفترض في كل ذي عقل وبصيرة أن يتدبّر وقائعها ويتعلّم من تجاربها ما يتجنّب به الأخطار التي تعرّض لها السّابقون من الأقوام والشّعوب[1].

إنّ العبرة التي تستخرج من هذا الماضي هي التي نتعلّم منها كيف نحترم تعاليم الله عزّ وجل، وكيف **نتعامل بنظافة واستقامة مع كلّ ما سخّره الله لنا**

---

(1) د. سعيد محمد الحفّار، المرجع السّابق.

من النّعم التي لا تحصى. وفي مقدّمتها : الأرض-الماء- الشّجر والنّبات- الحيوان- الفضاء الذي يحيط بنا في كرتنا الأرضيّة.

على أنّ مفهوم البيئة في الرّؤية الإسلاميّة، أوسع من أن يستوعب العناصر التي سبق أن تحدّثنا عنها. ذلك لأنّ مصير هذه العناصر ليس مرتبطاً بفرد بعينه ولا بقرية أو مدينة بعينها بل هو مرتبط أيضاً، **بفنّ التّعامل بين النّاس ومع المخلوقات جميعاً**.

إنّ إصلاح فرد من النّاس للأرض وغيرها وحرصه على تجنيب البيئة أخطار التلوّث، لا يبلغان أغراضهما ما لم يكن التّعاون وثيقاً بين الفرد وجيرانه، أو بين الفرد ومن يشاركهم في التّعامل مع العناصر المتعدّدة للبيئة. فالإسلام يحضّ على التّواصي والتّناصح بالخير والتّعاون عليه. وسلامة البيئة خير للنّاس كافّة.

ولذلك حرص الإسلام حرصاً شديداً، على تثبيت روح التّعاون وتوثيق صلة الأخوة بين الفرد وجاره أو بين الفرد ومن يشاركهم في صنع الحياة العامّة. بل حرص الإسلام على تحقيق ما وراء ذلك حين لم يقتصر على إعلان الأخوّة بين المؤمنين وحسب، بل قدم بني آدم كلّهم على أنهم بشر مكرمون من حقّهم أن يتمتّعوا بنعم الله ويتساووا في الإفادة من رزق الله بغضّ النّظر عن عقائدهم التي لا يحقّ لأي من النّاس أن يحاسبهم عليها.

إنّ هذه القيم الإسلاميّة هي العواصم الواقية من قواصم تلوّث البيئة الذي يهدّد سلامة كوكبنا الأرضي.

إنّ الإسلام يسعى بتوجيهاته الأخلاقيّة، وتشريعاته القانونيّة، للمحافظة على عناصر البيئة ومكوّناتها، ويعمل على تنميتها وتحسينها. كما أنّ الإسلام يقاوم بشدّة كل عمل يفسد البيئة، ويتلف عناصرها، ويعدّ ذلك عملاً محرّماً

يعاقب الله عليه، ومنكراً يجب النّهي عنه، وتغييرُه باليد أو باللّسان أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان[1].

يقول مفتي الدّيار المصريّة الدّكتور علي جمعة : «إنّ الإسلام تعامل مع الطّبيعة والكون من منطلق الحبّ والاحترام، وهو مستوى رفيع يزيد على مستوى المحافظة والتنمية، فالإسلام وجّه الإنسان إلى إنشاء علاقة بينه وبين غيره من المخلوقات فيها مشاركة وحنينٌ وشوق، فالكون في المنظور الإسلامي، طائع لله يسبح ويسجد، يحبّ المطيعين ويبكي رحيلهم عن الدّنيا، ويبغض العاصين الكافرين ولا يبالي بزوالهم وهلاكهم، وذلك لأنّ المطيعين متناغمون متشاركون معه في أداء السّجود والتّسبيح، أمّا الآخرون فهم معاندون متنافرون مع كلّ ما يحيط بهم»[2].

وتلك رؤية تميّز بها الإسلام، فقدّم منظومة متكاملة للكون تدعو الإنسان إلى المحافظة عليه وإلى حسن الانتفاع بما فيه من موارد سخّرها الخالق سبحانه لعباده.

لقد آمن المسلم وأدرك أنّه ما من شيء في هذا الوجود إلّا وهو مخلوق لله وخاضع بالعبوديّة له على الهيئة التي أقامه سبحانه عليها، قال تعالى : [أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ] [النّور : 41]. وقال Y : [تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا] [الإسراء : 44].

وما دام الكون يسبّح ربّه ويحمد خالقه عزَّ وجل، فإنّ أي اعتداء عليه أو تصرّف فيه بغير حقّ يعدّ عبثًا وطغيانًا يؤدّي حتمًا إلى الفساد، وينبغي أن يجرّم صاحبه، لأنّ أي اعتداء على الكون يعد اعتداء على حقّ الإنسان في الحياة.

---

(1) د. يوسف القرضاوي،المرجع السّابق، ص143.

(2) جريدة (الأهرام)، القاهرية، 26 يونيو 2010م.

والمسلم بهذا التّصوّر يحترم جميع المخلوقات أصغرها وأعظمها، لأنّه يراعي فيها عظمة موجدها ومدبّرها، وقدرة من تعبدها بالتّسبيح والسّجود.

وتلك هي القيم الإسلاميّة التي إذا سادت وعمل بها، كان لها دورها الفاعل والمؤثّر في إيجاد الحلول للمشكلات البيئيّة العالميّة.